التهيـــوء

فى شهر شوال من سنة ٦٥٥هـ (الموافق لشهر تشرين الأول من سنة ١٣٥٧ ميلادية) رحل هولاكو عن حدود همذان[١] نحو مدينة بغداد. وكان فى أيام محاصرته قلاع الملاحدة قد سير رسولاً إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله[٢] يطلب منه نجدة فأراد أن يسير الخليفة جيشاً تلبية لطلبه فلم يقدر إذ لم يمكنه الوزراء والأمراء وقالوا. أن هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة وليس محتاجاً إلى نجدتنا وإنما

(١) بالتحريك والذال معجمة وآخره نون فى الإقليم الرابع وطولها من جهة المغرب ثلاث وسبعون وعرضها ست وثلاثون درجة. قال هشام بن الكلبى: همذان سميت بهمذان بن القلوج بن سام بن نوح عليه السلام، وهمذان وأصبهان أخوان بنى كل واحد منهما بلدة، ووجد فى بعض كتب السريانيين فى أخبار الملوك والبلدان: إن الذى بنى همذان يقال له كرميس بن حليمون وذكر بعض علماء الفرس أن اسم همذان إنما كان نادمه ومعناه المحبوبة وروى عن شعبة أنه قال: الجبال عسكر وهمذان معمعتها وهى أعذبها ماء وأطيبها هواء

انظر المزيد فى: معجم البلدان ٥/ ٤١٠ ـ ٤١٧.

(٢) هو عبد الله (المستعصم) بن منصور (المستنصر) بن محمد (الظاهر) بن أحمد (الظاهر) من سلالة هارون الرشيد العباسى وكنيته أبو أحمد آخر الخلفاء الدولة العباسية فى العراق. ولد ببغداد سنه ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م وولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٠هـ والدولة فى شيخوختها لم يبق منها للخلفاء غير دار الملك ببغداد فألقى زمام الأمور إلى أمراء القواد واعتمد على وزيره مؤيد الدين ابن العلقمى وكان المغول قد استفحل أمرهم فى أيام سلفه المستنصر، فكاتب ابن العلقمى قائدهم هولاكو (حفيد جنكيزخان) يشير عليه باحتلال بغداد، ويعده بالإعانة على الخليفة، فزحف هولاكو سنة ٦٤٥هـ وخرجت إليه عساكر المستعصم فلم تثبت طويلاً ودخل هولاكو بغداد، فجمع له ابن العلقمى ساداتها ومدرسها وعلماءها فقتلهم عن آخرهم وأبقى الخليفة حيا إلى أن دل على مواضع الأموال والدفائن ثم قتله سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م وبموته =

غرضه إخلاء بغداد عن الرجال فيملكها بسهولة فتقاعدوا بسبب هذا الخيال عن ارسال الرجال. ولما فتح هولاكو تلك القلاع أرسل رسولاً أخر إلى الخليفة وعاتبه على إهماله تسيير النجدة فشار الوزير[1] فيما يجب أن يفعلوه فقال. لاوجه غير إرضاء هذا الملك الجبار ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه. وعندما أخذوا فى تجهيز مايسيرونه من الجواهر والمرصعات والثياب الذهب والفضة والمماليك والجوارى والخيل والبغال والجمال، قال الدويدار الصغير وأصحابه. أن الوزير إنما يدبر شأن نفسه مع التتر وهو يروم تسليمنا إليهم فلا نمكنه من ذلك فعدل الخليفة بهذا السبب عن تنفيذ الهدايا الكثيرة واقتصر على شئ نزر لاقدر له؛ فغضب هولاكو وقال: لابد من مجيئه هو بنفسه أو يسير أحد ثلثة نفر. أما الوزير وأما الدويدار وأما سليمانشاه.

فتقدم الخليفة إليهم بالمضى فلم يركنوا إلى قوله فسير

= انقرضت دولة بنى العباس فى العراق وعدة خلفائها ٣٧، ملكوا مدة ٥٢٤ سنه.

انظر المزيد فى : تاريخ الخميس ٢/ ٣٧٢، فوات الوفيات ١/ ٢٣٧، النجوم الزاهرة ٧/ ٦٣، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٣٦.

(١) هو محمد بن أحمد (أو محمد بن محمد بن أحمد) بن على أبو طالب مؤيد الدين الأسدى العلقمى البغدادى وزير المستعصم العباسى وصاحب الجريمة النكراء فى ممالأة «هولاكو» على غزو بغداد، فى رواية أكثر المؤرخين، اشتغل فى صباه بالأدب، وارتقى إلى رتبة الوزارة سنة ٦٢٤هـ/ فوليها أربعة عشر عاماً. ووثق به «المستعصم» فألقى إليه زمام أموره. وكان حازماً خبيراً بسياسة الملك، كاتباً فصيح الإنشاء، اشتملت خزائنه على عشرة آلاف مجلد وصنف له الصنعانى «العباب» وابن أبى الحديد «شرح نهج البلاغة» ونفى عنه بعض ثقات المؤرخين خبر المخامرة على المستعصم حين أغار هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦هـ وانفق أكثرهم على أنه مالأ وولى له الوزارة مدة قصيرة ومات سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ودفن فى مشهد موسى بن جعفر (الكاظمية) ببغداد وخلفه فى الوزارة ابنه عز الدين «محمد بن محمد بن أحمد»، وكان مولده سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م.

انظر المزيد فى: الفخرى ٩٥، البداية والنهاية ١٣/ ٢١٢، شذرات الذهب ٥/ ٢٧٢، الوافى بالوفيات ١/ ١٨٥، تاريخ الخميس ٢/ ٣٧٧، مرآة الجنان ٤/ ١٤٧، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٠١.

غيرهـم مثل ابن الجوزى[1] وابن محيى الدين[2] فلم يجديا عنه. وأمر هولاكو بايجونوين وسونجاق نوين ليتوجها فى مقدمته على طريق أربل وتوجه هو على طريق حلوان وخرج الدويدار من بغداد ونزل قريباً من بعقوبا ولما بلغه أن بايجونوين عبر دجلة ونزل بالجانب الغربى ظن أن هولاكو قد نزل هناك فرحل عن بعقوبا ونزل بحيال بايجونوين ولقى يزك المغول أميراً من أمراء الخليفة يقال له «ايبك الحلبى) فحملوه إلى هولاكو فأمنه أن تكلم بالصحيح طيب قلبه فصار يسير أمام العسكر. ويهديهم وكتب كتاباً إلى بعض أصحابه يقول لهم.

ارحمو أرواحكم واطلبا الأمان لأن لاطاقة لكم بهذه الجيوش الجرارة فأجابوه بكتاب يقولون فيه. من يكون هولاكو وماقدرته ببيت عباس. من اللّه ملكهم.

(١) هو الإمام العلامة الحافظ عالم العراق وواعظ الآفاق جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن عبد اللّه القرشى البكرى الصديقى البغدادى الحنبلى الواعظ. صاحب التصانيف السائرة فى فنون العلم، وعرف جدهم لجوزة كانت فى دارهم لم يكن بواسط سواها. ولد سنة عشر وخمسمائة أو قبلها. وسمع فى سنة تسع عشرة من ابن الحصين وأبى غالب بن البناء وخلق عدتهم سبعة وثمانون نفساً. وكتب بخطه الكثير جداً، ووعظ من سنة عشرين إلى أن مات. حدث عنه بالإجازة الفخر على، وغيره. وله: «زاد المسير» فى التفسير، و«جامع المسانيد» و«المغنى» فى علوم القرآن، و«تذكرة الأريب» فى اللغة و«الوجوه والنظائر» و«مشكل الصحاح» و«الموضوعات» و«الواهيات» و«الضعفاء» و«تلقيح فهوم الأثر» و«المنتظم» فى التاريخ وأشياء يطول شرحها. وما علمت أحداً من العلماء صنف ما صنف. وحصل له من الحظوة فى الوعظ مالم يحصل لأحد قط، قيل إنه حضره فى بعض المجالس مائة ألف وحضره ملوك ووزراء وخلفاء وقال: كتبت بأصبعى ألفى مجلد، وتاب على يدى مائة ألف وأسلم على يدى عشرون ألفا. مات سنة ٥٩٧هـ.

انظر المزيد فى: انباه الرواة ٢/ ١٦٢، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٩، بغية الوعاة ٢/ ٨١، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٤٨، الديباج المذهب ١٥٠، الرسالة المستطرفة ١٠٧، شذرات الذهب ٤/ ٢٧١، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٣٧١، طبقات المفسرين للداودى ١/ ٢٦٦، العبر ٤/ ٢٤٤، مرآة الجنان ٣/ ٤٢٢، نكت الهميان ١٨٧، وفيات الأعيان ١/ ٢٨٠.

(٢) هو محمد بن على بن محمد بن العربى أبو بكر الحاتمى الطائى الأندلسى المعروف بمحيى الدين بن العربى الملقب بالشيخ الأكبر، فيلسوف من أئمة المتكلمين فى كل علم، ولد فى مرسيه بالأندلس سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م ومات سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، له عدة مصنفات منها «الفتوحات المكية» و«محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار»، و«عنقاء مغرب» وغيرهم.

انظر المزيد فى: فوات الوفيات ٢/ ٢٤١، جذوة الأقتباس ١٧٥، مفتاح السعادة ١/ ١٨٧.

ولا يفلح من يعاديهم ويعاندهم ولو أراد هولاكو الصلح لما داس أرض الخليفة ولما أفسد فيها. والآن إن كان يختار المصلحة فليعد إلى همذان ونحن نتوسل بالدويدار ليخضع لأمير المؤمنين متخشعاً فى هذا الأمر لعله يعفو عن هفوة هولاكو.

فلما عرض أيبك الكتاب على هولاكو ضحك هذا واستدل به على غباونهم وغفلتهم ثم سمع الدويدار أن التتر قد توجهوا نحو الأنبار فسار إليهم ولقى عسكر الدويدار فاقتتلوا قتالاً شديداً وانجلت الحرب عن كسرة الدويدار فقتل أكثر عسكره ونجا هو فى نفر قليل من أصحابه وفر حتى دخل بغداد.

الفصل الثانى
هولاكو على باب بغداد

وفى منتصف شهر المحرم من سنه ٦٥٦هـ (الموافق لشهر كانون الثانى سنة ١٢٥٨ مسيحية) نزل هولاكو بنفسه على باب بغداد، وفى يوم وليلة بنى المغول بالجانب الشرقى سوراً عالياً وبنى بوقاتيمور. وسونجاق نوين. وبايجونوين بالجانب الغربى كذلك وحفروا خندقاً عميقاً داخل السور ونصبوا المنجنيقات بإزاء سور بغداد من جميع الجوانب ورتبوا العرادات وآلات النفط. وكان بدء القتال ثانى وعشرين محرم (٣٠ كانون الثانى).

فلما عاين الخليفة العجز فى نفسه والخذلان من أصحابه أرسل صاحب ديوانه وابن درنوش إلى خدمة هولاكو ومعهما تحف نزرة. قالوا: إن سيرنا الكثير يقول قد هلعوا وجزعوا كثيراً. فقال هولاكو. لم ماجاء الدويدار وسليمانشاه فسير الخليفة وزيره مؤيد الدين ابن (العلقمى) وقال. أنت طلبت أحد الثلاثة وها أنا قد سيرت إليك الوزير وهو أكبرهم. فاجاب هولاكو. اننى لما كنت مقيماً بنواحى همذان طلبت أحد الثلاثة والآن لم أقنع بواحد.

وجد المغول بالقتال بازاء برج العجمى (برج العجمى أو برج العجم كان معروفاً إلى عهد السلطان مراد الرابع فاتح بغداد لأن التاريخ يذكر أن السلطان المذكور أمر ببناء ثلاثة ابراج شاهقة عميقة الأسس فى داخل الثكنة قريباً من الباب الأبيض فى المحل المشهور باسم تل ذى الفقار بازاء برج العجم، أما اليوم فلا نرى برجاً من هذه البروج كلها ولا نعرف موقعها) وبوقا تيمور من الجانب

الغربى حيث المقابلة وسونجاق نوين وبايجونوين من جانب البيمارستان العضدى.

وأمر هولاكو البتيكتجية (أى الكتاب) ليكتبوا على السهام بالعربية (إن الأركاونية) أى الذين بيدهم القلاع والعلويين والداذنشمديه (أى كبار السادة) وبالجملة كل من ليس يقاتل فهو آمن على نفسه وحريمه وأمواله وكانوا يرمونها إلى المدينة.

واشتد القتال على بغداد من جميع الجوانب إلى اليوم السادس والعشرين من محرم.

تملك المغول على بغداد

فى ٢٦ محرم (ـ ٣ شباط ١٢٥٧هـ) ملك المغول الأسوار وكان الإبتداء من برج العجمى واحتفظ المغول الشط ليلاً ونهاراً مستيقضين لئلاً ينحدر فيه أحد، وأمر هولاكو أن يخرج إليه الدويدار وسليمانشاه. وأما الخليفة أن أختار الخروج فليخرج والافليلزم مكانه فخرج الدويدار وسليمانشاه ومعهما جماعة من الأكابر. ثم عاد الدويدار من الطريق بحجة أنه يرجع ويمنع المقاتلين الكامنين باندروب والأزقة لئلاً يقتلوا أحداً من المغول فرجع وخرج من الغد وقتل.

وعامة أهل بغداد أرسلوا شرف الدين المراغى وشهاب الدين الزنكانى لياخذا لهم الأمان ولما رأى الخليفة أن لابد من الخروج أراد أو لم يرد استاذن هولاكو بأن يحضر بين يديه فاذن له وخرج رابع صفر (١١ شباط) ومعه أولاده وأهله.

فتقدم هولاكو أن ينزلوه بباب كلواذى وشرع العساكر فى نهب بغداد ودخل بنفسه إلى بغداد ليشاهد دار الخليفة وتقدم باحضار الخليفة فاحضروه ومثل بين يديه وقدم جواهر نفيسة ولآلئ ودرراً معبأة فى أطباق، ففرق هولاكو جميعها على الأمراء وعند المساء خرج إلى منزله وأمر الخليفة أن يفرز جميع النساء التى باشرهن هو وبنوه ويعزلهن عن غيرهن ففعل فكن سبعمائة امرأة فاخرجهن ومعهن ثلثمائة خادم خصى وبقى النهب يعمل إلى سبعة أيام ثم رفعوا السيف وبطلوا السبى.

وفى رابع عشر صفر (٢١ شباط سنة ١٢٥٨هـ) رحل هولاكو من بغداد

الفصل الرابع

قتل الخليفة المستعصم وانقراض دولة بنى العباس

وفى أول مرحلة من سفر هولاكو قتل الخليفة المستعصم وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان بالليل وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذى.

وبموت الخليفة المستعصم وأولاده انقرضت دولة بنى العباس، وكانت مدة خلافة المستعصم ١٦ سنة تقريباً وكانت مدة ملك العباسيين ٥٢٤ سنة هجرية وعدة خلفائهم ٣٧ خليفة (إلى هنا عن تاريخ ابن العبرى[١] بتصرف قليل).

(١) هو غريغورس واسمه فى الولادة يوحنا بن أهرون أو هارون بن توما الملطى أبو الفرج المعروف بابن العبرى مؤرخ سريانى مستعرب من نصارى اليعاقبة، ولد سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م فى ملطية (من ولاية ديار بكر) وفر مع أبيه إلى أنطاكية سنة ١٢٤٣م بسبب هجوم التتار فتعلم العربية والطب، واشتغل بالفلسفة واللاهوت. وتنقل فى البلدان وانقطع فى بعض الأديرة ونصب أسقفا على جوباس (من أعمال ملطية) سنة ١٢٦٤م وسمى «غريغويوس» ثم كان أسقفاً لليعاقبة فى حلب وارتقى إلى رتبة «جاثليق» على كرسى المشرق سنة ١٢٦٤م (والجاثليق رياسة رؤساء الكهنة السريانيين فى بلاد المشرق العراق وفارس وما إليهما ويقال لصاحبه هذه الرتبة عند رجال الكنيسة المفريان) وتوفى فى مراغة باذربيجان سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م ونقلت جثته إلى الموصل فدفنت فى دير مارمتى.
انظر المزيد فى: اللؤلؤ المنثور ٤١١ ـ ٤٣٠.

الفصل الخامس

امحاق سكان بغداد

بعد أن دام القتل والذبح سبعة أيام لم يبق من أهل بغداد إلا القليل، فالذى استطاع أن ينجوا نجا ومن بقى قتل شر قتلة حتى أمحق أغلب البغداديين. وقد أستبقى القتلة جماعة من الشيعة والنصارى لاغير ومن سكن بغداد من بعد السكان الأصليين قوم جاؤوا مع هولاكو من أقطار شتى ونية اغلبهم السلب والتمول بزمن وجيز كما يجرى مثل هذا الأمر فى الفتوحات والحروب العظيمة.

الفصل السادس

الحكومة فى بغداد بعد فتحها على يد هولاكو

بعد أن فتح هولاكو دار الخلافة العباسية سعى فى تنظيم شؤون حكومتها ففوض عمارة بغداد إلى صاحب الديوان (فخر الدين الدامغانى) والوزير (مؤيد الدين ابن العلقمى) وابن درنوش وكانت الحامية جماعة من فرسان المغول وعددهم ثلاثة آلاف ورئيسهم ايليجكتاى نورين وقرابوغا. وعهد إليها (أى إلى الحامية ورئيسها) الشحنة وما يدخل تحتها من الأمور التى تشابهها.

وارسل بوقاتيمور إلى الحلة[1] ليمتحن أهلها هل هم على الطاعة أم لا، فتوجه نحوها ورحل عنها إلى مدينة واسط وقتل بها خلقاً كثيراً اسبوعاً. ثم عاد إلى هولاكو وهو بمقام سباه كوه (أى رئيس الجيوش).

وتلقى عمالة الرساتيق فى شرقى بغداد أحمد بن عمران وكان أحمد هذا خادماً لحاكم بعقوبا وفى أيام الحصار سعى فى تمرين جيش هولاكو مدة ١٥ يوماً وذلك بأن كشف سر انابير الطعام المخزونة فى السراديب والمطامير التى كانت قريبة من بعقوبا فكافأه هولاكو على عمله هذا الجليل أن إقامه على رساتيق شرقى بغداد.

وأقام نظام الدين عبد المومن قاضى القضاة وانتظم به عقد الحكومة لجديدة وموظفيها ووظائفهم.

أما ابن العلقمى وزير المستعصم سابقاً (وكان شيعياً وهو أول من سعى بتل

(١) قرية مشهورة فى طرف دجيل بغداد من ناحية البرية بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ تنزلها القفول.
انظر: معجم البلدان ٣/ ٣٢٨.

عرش الخلافة العباسية معاداة لأهل السنة) فأنه بعد أن خدم الحكومة الجديدة بمنزلة معاون للحاكم لا بمنزلة وزير لم يتهتأ زمناً طويلاً لمنصبه الجديد على حقارته إذ توفى بعد ثلاثة أشهر من سقوط بغداد وابنه شرف الدين أبو القاسم على قام فى منصب ابيه بمنزلة معاون للحاكم.

وبقيت الأمور سائرة على هذا الوجه من النظام والترتيب إلى سنة ٦٦١هـ/ ١٢٥٣م وعامئذ أمر خان المغول بقتل وزيره سيف الدين البتيكتجى وكذلك الخواجه عزيز حاكم بلاد الكرج والخواجا مجد الدين التبريزى. ونصب وزيراً له شمس الدين محمد الجوينى واخاه علاء الدين عطاء الملك حاكماً على بغداد وعلى ولايتها.

وعلاء الدين هذا هو صاحب تاريخ فتوحات المغول وقد كتبه باللغة الفارسية ووسمه «بتاريخ جهان كوشاى» ولما كان هذا الرجل عادلاً نشر للحال أجنحة السلام والنجاح فى دار السلام. وهو الذى أمر بحفر نهر يدفع فى النجف مياه الفرات. ذلك النهر الذى لما تراكمت فيه الرمال وسدت مجراه بعد قرون فتحه الشاه إسماعيل الصفدى فعرف بوقته بالنهر الشاهى وهو المعروف اليوم بنهر الهندية لأن آصف الدولة أحد أمراء الهند فى لكنهورجاء إلى النجف ورأى قلة الماء هناك فاعاد كرى النهر فسمى بالهندية وذلك سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م نقلاً عن مختصر الدول وروضة الصفاء لميرخند وحبيب السير ومخطوطات دير المبعث.

الفصل السابع
مصير أهل المناصب الجديدة
ومن كان من بعدهم وسلطنة باقابن هولاكو

هلك هولاكو سنة ٦٦٣هـ وعمره ٤٨ سنة فى الليلة التى سبقت نهار الأحد ١٩ ربيع الثانى (ـ ٨ شباط ١٢٦٥م) وقيل هلك فى سنة ٦٦٤هـ وكان حكيماً حليماً ذافهم ومعرفة ودهاء يحب الحكماء والعلماء وبعده بقليل اندرجت طقز (خاتون) زوجته وكانت أيضاً عظيمة فى رأيها وخبرتها.

وبعد ذلك اجتمعت الأولاد والأمراء والخواتين واتفقوا على أن أباقابن هولاكو يقعد على كرسى المملكة لأن عنده العقل والكفاية والعلم والدراية، ولما أقيم على عرش أبيه ابقى شمس الدين محمداً فى منصبه إلا أن محمد الملك اليزدى ابن صفى الملك وزير أتابك يزد سابقاً مازال يقتل من شمس الدين فى الذروة والغارب حتى قتل ذؤابة اباقا فى ما يتعلق بأمر وزيره الأعظم فجاء أباقا بغداد.

ويقال أن فى تلك الأنباء كان عطاء الملك يواصل المصريين مواصلة خفية لغايات سياسية فوشى به إلى سلطان المغول فأمر بأن يغل لأنه لم يثبت عليه ما شاع عنه وإلا لافناه، وقد بذل أخوه الأموال الطائلة لأنقاذه فلم يفلح فتعهد عطاء الملك أن يدفع للخزانة الأميرية ثلثمائة تومان ذهب والظاهرأن التومان كان يومئذ على غيرما هو الأن لأن الرجل المذكور دفع كل ما يملك وباع جميع نسائه وأولاده ومع ذلك لم يتمكن من أن يدفع المبلغ كله وفى ٤ رمضان سنة ٦٨٠هـ (ـ ٨ كانون الثانى ١٢٨٠م) أطلقه من السجن.

ومن بعد مضى قليل من الزمن على هذا الحادث توفق مجد الملك إلى دخول بغداد فاعاد الكرة على الحاكم المظلوم واوجب عليه أن يدفع ما بقى فى ذمته أى مائة وثلاثين توماناً ولما لم يستطع عطاء الملك أن يفيها عذب أشد العذاب وجرد من ثيابه وطيف به على هذه الحالة فى المدينة كلها وبينما كان يساق إلى السلطان الذى كان قد ذهب إلى همذان شاع خبر وفاة اباقا إيلخان عند وصول مجد الملك إليها وكان موته فجائياً وكان نصرانياً كأبيه هولاكو.

الفصل الثامن
حادثة جاثليق النساطرة ومحاولة الإسماعيليين لقتل حاكم بغداد

وقع حدثان فى ذلك العهد ولا شك أنهما وقعا فى أيام حكم عطاء الملك على بغداد وأول هاذين الحدثين أمر جاثليق النساطر فأن هذا الخير كان يقيم فى بغداد منذ مصرت هذه المدينة وجعلت دار خلافة إلا أنه فى سنة ٦٦٨هـ (أى سنة ١٢٦٨م) رأى نفسه مجبوراً أن يغادر العاصمة أثر قبتة وقعت فيها والسبب هو أن الجاثليق المذكور (وكان اسمه دنحا) وقد كان خلفاً لسلفه (مكيكا) حبس عنده نسطورياً كان قد أسلم قبل بضع سنوات وأشاع بعض المفسدين من أهل الأهواء أن نية الجاثليق أن يغرقه فى الشط فتجمهر المسلمون مفتتين أمام دار الحكومة فبعث الوالى مراراً إلى الجاثليق طالباً منه أن يسلمه الرجل المحبوس فابى مصراً على بقائه فى قصره فما كان من الرعاع إلا واحرقوا باب دار الجاثليق ورواقه وتسلقوا الجدار ليدخلوا عليه ويقتلوه فلم يعثروا عليه لأن الوالى كان قد وجه إليه رجالاً لينقذوه من أيدى الأوباش فنجحوا فى سعيهم وهزموه ببنات الطريق ومن بعد أن نجا اشتكى على أولئك الرعاع أمام ديوان القان لكن سعيه ذهب ادراج الرياح فلما رأى أن لاقبل له بالإقامة فى عاصمة العباسيين عقد النية على تبديل مقامه فذهب وأقام كرسيه الجاثليقى فى اربل.

وأما الحدث الثانى فهو أن بعض الإسماعيلية[1] حاولوا أن يقتلوا والى المدينة فاخفق سعيهم فقبض عليهم ومزقوا ارباً ارباً فاشاع بعض الرعاع أن هؤلاء الإسماعيلية من النساطرة وقد أرسلهم إلى بغداد جاثليقهم انتقاماً منه فكانت هذه

(١) إحدى الفرق «الشيعه».

الأراجيف مدعاة لحبس الأساقفة والمطارنة وسائر رؤساء خدمة الدين الذين بقوا فى الزوراء ووقتئذ إمرقاه اربيل وكان قوتلوق شاه أن يقبض على الجاثليق ويلقى فى السجن ولم يطلق سراحه إلا بعد بضعة اسابيع بأمر صدر من ديوان القان ومنذ ذلك الحين صمم جثالقة النساطرة أن يقيموا فى حرز حريز لا يصل إليهم الأعداء بسهولة فذهبوا ونصبو كرسيهم فى (اشنو) من بلاد آذربيجان.

تملك تكودار اغول وما وقع في عهده من الحوادث المشهورة

كان لتكوداراغول بن بوخى اغول اسم آخر إسلامى وهو أحمد وهو أخو أباقا بن قوتاى خاتون وقد رقى عرش المملكة خلفاً لأخيه سنة ٦٨١هـ (ـ ١٢٨٢م) فاعاد إلى الوزارة شمس الدين محمداً وأرجع عطاء الملك إلى وظيفته وظيفة وال فلما انتشر هذا الخبر بين أهل بغداد أقاموا أعياداً دامت أثنا عشر يوماً وأصدر القان مرسوماً وجهه إلى البغداديين ليبشرهم بإرتقائه إلى عرش المملكة وبإيمانه الصادق ومما جاء فيه ما هذا معناه. أعيدوا إلى المدارس والأوقاف ماتزعتموه منها وكان لها فى عهد الخلفاء العباسيين وليأخذ كل واحد نصيبه مما كان يعود إليه من ريع المساجد والمدارس؛ فهذا كلام جزيل الفائدة لأنه يدلنا على أن الإضطراب كان عظيماً فى المدينة وأنه لم يبق باق على حالته الأولى وإن المغول الكفرة كانوا قد اعتبروا الأوقاف والمدارس العديدة بمنزلة ملك عائد إلى الدولة الفاتحة ولهذا أمر تكودار أغول ما أمر حماية لشوكة الإسلام.

ولما مكنت قدم عطاء الملك من الوقوف على دست الولاية انتقم من عدوه مجد الملك وحكم عليه بأنه ساحرو خائن ولم تكن نيته قتله بل تعذيبه فقط إلاّ أن خدمه ذهبوا وفسخوه فسخاً بدون أن ينتظروا أمراً من سيدهم ووزعوا أعضاءه المفسوخة على النواحى المجاورة وعلقوا رأسه على جسر بغداد.

وتوفى عطاء الملك فى تلك السنة عينها (أى فى ذى الحجة سنه ٦٨١هـ/ ٥ آذار سنة ١٢٢٣م) بداء السكتة عند سماعه أخبار أرغون الذى كان عقد نيته على أن يشدد الخناق عليه وعلى أن ينادى تكودار أخاه الذى شتى فى نواحى بغداد تلك السنة.

انتصار ارغون على أخيه تكودار اغول وأخذه بغداد وذكراهم ما جرى فى عهده

لما حارب أرغون أخاه أحمد وانتصر عليه سلم عنان دار الخلفاء إلى أخيه بايدو أغول سنة ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) فاستوزر هذا الأمير بوقا الذى نسب إلى شمس الدين محمد بسم باقا ولهذا أمر بقتله وقتل أولاده الثلاثة.

ولقد ظهر تملك أرغون على بغداد والعراق بما بذل من السعى المحمود فى حفر نهر جديد يخرج من الفرات ويدفع ماءه فى سهل كربلاء.

وبعد قتل شمس الدين بقليل أمر القائد أروق أخو بوقا الذى كان وزيراً لأرغون وكان بيده إمرة الجيوش فى العراق العربى فى عهد الأمير بايدو بأن يقتل ابن آخر لشمس الدين واسمه خواجا هارون وكيل الولاية لأنه كان يظنه أنه متفق مع مجد الدين أثير الذى كان قد نسب إلى أروق العبث بأموال الدولة. ثم أن أروق قبض عليه وقتل حالاً بعد قتل أخيه بوقا.

وممن اشتهر فى ذلك إلا وأن الطبيب اليهودى سعد الدولة فأنه خلف جلال الدين السمنانى فى الوزارة المالية وكان طبيباً خاصاً لأرغون لكنه كان يقيم اعتياديا فى بغداد.

فعلمه طول الإقامة الإطلاع على حالة المال فى الولاية ولما كان واقفاًاتم الوقوف على بخل القان المغولى كان يكلمه دائماً عما اختلسه وكلاء أروق وحالة واردات الأموال الأميرية وكل ذلك طمعاً فى تحويل فكره عن الأشغال المبهمة وانتهى به الأمر أن بين له أنه أغلب أموال الدولة ذهب إلى خزائن أروق ومنها إلى خزائن أخيه بوقا الوزير. ومن جملة الشواهد التى أتى بها دعاماً لرأيه ما ذكر

له من هدم عدة مدارس وخانات بل هدم جامع وأخذ موادها لبناء ما قد أمر به أروق المذكور وفى الأخر لمح اليهودى فى دسائسه فعين له رجلان من زعماء الدولة وهما أردو قيان وبيان سكورجى وعهد إلى ثلاثهم أن يفصحوا دواوين الحساب ويقبضوا الواردات. فجمع سعد الدولة من ذلك مبلغاً طائلاً وسلمه بيد أرغون فلما رأى هذا ما فى هذا الطبيب من الكفاءة والجدارة إقامه مراقباً على دخل المملكة وخزانتها.

فلما بلغ اليهودى هذا المبلغ من علو المرتبة أقام أخاه فخر الدولة ناظراً عاماً على مزارع العراق وسائر أقاربه فى وظائف أخرى من وظائف الدولة فى أقطارها المختلفة القريبة من بغداد.

ولما مات أرغون أثر مرض لم يمهله زمناً طويلاً جمع سعد الدولة حسنات كثيرة ودفع إلى أهل الجباية فى بغداد ثلاثين ألف دينار من البقايا إلا أن قتل هذا الوزير قلب ظهر المجن لليهود وذلك أن بعض كبار الدولة تأمروا على الفتك بحياته فنجحوا فى مؤامرتهم وكان قتله قبل وفاة أرغون التى وقعت فى ٧ ربيع الأول سنة ٦٩٠هـ (ـ ١٠ آذار سنة ١٢٩١م) ومنذ ذاك الحين ضيق على اليهود تضييقاً عظيماً حتى عد ذلك الضيق من أعظم المصائب التى نزلت بهم. وقام المسلمون فى بغداد قومة واحدة وبأيديهم الأسلحة هجموا على اليهود فى محلتهم هجوم الأسد الضرغام إلا أن اليهود كانوا قد استعدوا لهذه الموقعة فدافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال وردوا مهاجميهم على أعقابهم وكان القتل فى الجانبين عظيماً جداً (إلى هنا نقلاً عن ابن العبرى وذو صون ورصاف وغيرهم).

سلطنة كيخاتو

خلف أرغون كيخاتو على عرش السلطنة إلا أن أمرآء المغول ما عتموا أن كرهوه لكثرة مفاسده وخلعه عذار الحياء فعقدوا النية على تمليك بايدو وقبل أن يستوى هذا على العرش دفع بعض الناس إلى قتل محمد السكوريجى الذى كانت بغداد بيده وما قتل إلا ورفع البغداديون علم العصيان والتمرد ولما رقى بايدو تخت المملكة عين حاكماً على بغداد تودواجو أحداخصائه فصادر سكان المدينة واستنزف أموالهم واعتصرهم إعتصاراً لم يسمع بمثله.

تملك غازان أو قازان

قبض غازان على عنان الملك بعد كيخاتو وفى غرة ملكه ضيق الإسلاميون على الذميين تضييقات لايقى وصفها القلم وكان أشد هذه المحن وقع فى نصارى بغداد حتى لم يجسر واحد من الرجال أن يظهر فى الطرق تحث نساؤهم بالذهاب إلى السوق لمشترى الأطعمة لأنهن كن يتزين بزى المسلمات كما أنهن كن يبعن ما يلزم بيعه طلباً للرزق والربح إلا أن المرأة كانت إذا عرفت أنها نصرانية أهنيت أشد الأهانه وضربت ضرباً ربما اودى بحياتها.

وممن امتحن بهذه المحنة سائر الذميين من يهود ومجوس وإن لم تكن محنتهم بالدرجة التى وصلت إليهم محنة النصارى.

وفى ذلك العهد أيضاً انتشل المسلمون من أيدى النصارى الكنيسة التى كان قد بناها الجاثليق مكيكا فى قصر الدويدار الذى أعطاه أباه هولاكو. وزد على ذلك أنهم نبشوا قبره واستخرجوا رفاته ورفات خلفه دنحا والقوها على الأرض فأسرع النساطرة وتلقفوها ودفنوها فى بيع أخرى من بيعهم (إلى هنا نقلاً عن ابن العبرى وذو الصون وشابو وغيرهم).

وأما الخراج الذى كان يؤدي الذميون ولاسيما النصارى عن الأرضين التى ابقيت لهم فكان غازان قد ميز بغداد عن سائر بلاد مملكته فى الأمر لذى اصدره فى شهر رجب من سنة ٧٠٣هـ (ـ شياط سنه ١٣٠٤م) إذ أوجب فيه على أهل سائر المدن أن يدفعوا الخراج مرة واحدة فى السنة من نوروز الربيع إلى اليوم العشرين منه وأما فى دار الخلفاء فكان يجبى فى أيام الحصاد إلى مدة عشرين يوماً.

وكان غازان بشتى فى بغداد ويقضى أيامه فى الصيد فى السهول التى تكتنف المدينة وفى ١٨ ذى القعده من سنه ٦٩٥هـ (ـ ٢٩ ايلول ١٢٩٦م) غادر جوار مراغة واخذ معه أكابر دولته وذهب بهم على شواطئ دجلة فوصلها بعد ثلاثة أشهر فى شهر كانون الأول وقضى أيام الشتاء وأخذ يتصيد فى العراق وبرحه طالباً همذان فى ١٤ جمادى الأولى سنة ٦٩٦هـ (ـ آذار سنة ١٢٩٧م) وأمر بأن يقام فى دار الخلفاء كما فى سائر مدن المملكة دور ضيافة سماها (دور السيادة) لانزال السادة أبناء ذرية على بن أبى طالب فى رحابها ومقاصيرها وحبس عليها الأموال الطائلة لنفقتها ونقفة من ينزلها من العلويين.

وفى حين زحفته الثالثة على ديار الشام عبر غازان الفرات إلى الحلة فى ١٠ جمادى الثانية من سنة ٨٠٢هـ (ـ ٣٠ كانون الثانى سنه ١٤٠٣م) وفى اليوم السادس من عبوره الفرات ذهب لزيارية قتيل كربلاء وعين للسادة لتقيمين بجوار التربة ثلاثة آلاف من الخبز فى اليوم الواحد من ربع الأرضين التى يسقيها النهر الأعلى الذى حفره غازان وكان شقة من الفرات إلى مشهد الحسين ناقلاً ماء زلالا إلى بلدة مدفن الحسين وقال ذو الصون فى كتابه تاريخ المغول.

أمر غازان فحفر فى أرض الحلة نهراً يأخذ ماءه من الفرات ويدفعه إلى مرقد الحسين ويروى سهل كربلاء اليابس الفقر. وما جرى الماء إلا وفرش عليها بسلطاً أخضر كله محاسن ولبست الأرضون ثياباً سندسية سداها مختلف النبات ولحمتها ألوان الأشجار وكانت غلتها تزيد فى السنة على مائة ألف طغار من الحبوب تفوق حبوب بغداد حسناً وجوهراً، وأمر غازان أن يوزع كل سنة مقدار وافر من الحنطة على السادة الفقرآء الذين كانوا يأوون إلى المرقد وعددهم كان هناك عديداً. وتسمى ذلك النهر «نهر غازان الأعلى» «أو النهر الأعلى الغازانى» تمييز له عن النهر الأخر الذى كراه هو أيضاً ويأخذ ماءه من الفرات وينزل به إلى مرقد السيد أبى الوفاء وكان الباعث على شق هذا النهر أنه ذهب يوماً يتصيد فاقضى به الصيد إلى السهل الفقر الذى فيه مرقد هذا السيد. واراد حينئذ أن يورد دوابه وخيله فلم يجد ثم ماءً فالى على نفسه أن يجلب الماء إلى ذلك الوطن ويسقى أراضيه ففعل وسمى هذا النهر «نهر غازان الأسفل» أو «النهر الأسفل الغازانى»

وكأنه لم يكتفى بهذين النهرين فحفر نهراً ثالثاً فى الطرف الشرقى من بادية كربلاء واشتهر باسم «نهر غازان» واوقف غلات تلك الأنهر وريعها لمرقد أبى الوفاء ولاوقاف شيئاً توفى غازان فى الرى سنه ٧٠٣هـ (ـ ١٣٠٠م).

تملك الجايتق أوخربندة بن أرغون

وبعد أن توفى غازان تسلم سرير الملك «الجايتق» وكان يشتى فى بغداد ويصيف فى «السلطانية» وهى مدينة من بنائه ومن شتواته شتوة سنة ٧١١هـ، ٧١٢هـ (ـ ١٢١١م ـ ١٣١٢م) فسافر من بغداد فى ربيع هذه السنة الثانية المذكورة وكان وزيره تابع الدين على شاه وكان فى السابق جواهرياً وبزازاً وكان سعد الدين الساوجى الوزير الذى سبقه قد أودع إلى عهدته رئاسة معامل بغداد الملكية تخلصاً منه وابعاداً أياه من حوالى الملك ولم يشتهر هذا السلطان بأمر يذكر راجع إلى بغداد غير ماذكرناه ويسمى العرب هذا الملك خربندة بن أرغون ملك على العراق كله وخراسان فضلاً عن بغداد وكانت مدة حياته ثلاثين سنة.

وقد ذكر بعض المؤرخين من الفرس كلمة خربندة مصحفة بصورة خدابندة. والأصح الرواية الأولى وأن تابعهم فى غلطهم هذا البستانى فى دائرة المعارف فى مادة بغداد (فى ٥/ ٥١٥) وإنما صحفوها بصورة خدابندة تعصباً لاطلبا للحقيقة لأن معنى خربندة عبد الحمار أو خادم الحمار وأما خدابندة فمعناه عبد الله أو خادم الله راجع تاج العروس فى مستدرك مادة خرد. تره يقول: وخربنده ملك العراق فارسية أى عبد الحمار» أهـ وأزيد على ذلك أن كلمة خربندة معروفة إلَى يومنا هذا فى بغداد. ومنها بستان خربندة.

سلطنة أبى سعيد بهادر بن خريندة بن أرغون بن اباقا أو ابغا بن هولاكو

لما أمتطى أبو سعيد بهادر بن خربندة صهوة المملكة لم يكن عمره يتجاوز السنة الثالثة عشرة وكان ذلك سنة ٧١٦هـ (ـ ١٣١٦م) واستوزو له الأمير جوبان وأودع أولاده سائر الولايات وأقامهم حكاماً عليها فوقعت بغداد فى حصة أحدهم ولما استحكمت عرى الصداقة بين الخان ووزيره هام السلطان «ببغداد خاون» ابنة جوبان وزوجة الشيخ حسن الإيليخانى فلما رأى ذلك الوزير وما يترتب على هذا الأمر من العواقب الوخيمة وما يدور عليه من الدوائر الطاحنة أرسل صهره مع أبنته إلى قره باغ وحسن للخان قضاء الشتاء فى جوار بغداد فنجح فى مسعاه مع ما بذل الوزير «ملك ناصر الدين» فى سبيل أحباطه لاجل توفق جوبان إلى أن ينفى الوزير المذكور إلى خراسان وإلى قنلى وقتله فى أثناء الطريق.

وذهب أبو سعيد من بغداد إلى السلطانية فقتل فيها «دمشقى خواجا» ابن جوبان على وشاية لاغير فاوعز هذا العمل صدر الأمير جوبان ودفعه إلى العصيان والخروج على السلطان سنة (٧١٩هـ ـ ١٣٢٠م) إلا أن رؤساء الجيوش خانوه فولى مدبراً خراسان ومنها إلى هراة طالباً الخلاص مستغيثاً بالملك غياث الدين، فلم يتوفق إلى النجاة فقتل بأمر أبى سعيد وبلغ عدد قتلى الفتنة ثلاثين ألف نسمة. وفى سنة ٧٢١هـ ـ ١٣٣٢م أرسل بهادر هدية للسلطان الناصر راقت فى عينية ثم بعث بهادر المذكور إلى بغداد فيجاً يخبر أهلها باراقة الخمور وإبطال

الفواحش فنادى المنادى بذلك فى الأسواق والشوارع ومما ذكر أنه وجد فى بيت رجل ذمى خابية خمر خذت الخابية واهريق مافيها وكسرت ووضعت العلائم على الذميين من نصارى ويهود تمييزاً لهم من الإسلاميين عند وقوع الفتن بسبب الخمر والعهر فأسلم كثير من الذميين والتتار، ومات بهادر سنة ٧٣٦هـ ـ ١٣٣٦م وكانت مدة ملكة عشرين سنة.

سلطنة أرياغاوون أو ارياخان
وموسى خان وحسن الإيلخانى وحسن الجوبانى

«على باشا» أو على رواية بعضهم «عليشاه» وأصح الروايات (على بادشاه) كان حاكماً على بغداد لما خلف أرياغاوون على سرير السلطنة سلفه ابا سعيد وكان على المذكور شيخ فخذ من قبيلة الأويرات (المعروفة عند الأجانب باسم الويثة) قد أقام فى نواحى بغداد مع قومه وهو أخ (الحاجة خاتون) أم السلطان (أبى سعيد) فالتجأت إليه زوجة أبى سعيد الثانية واسمها (دلشاد خاتون) أبنة «دمشق خواجا» وكانت يومئذ حبلى خائفة على حياتها وقد فزعت هذه الخاتون إلى على بادشاه حلاً بعد مبايعة أرياغاوون وليس بعد وجود (بغداد خاتون) أول زوجة السلطان مخنوقة فى حمام على مارواه نظمى زاده فان خنق (بغداد خاتون) كان بعد ذلك بقليل.

أما على بادشاه فاستنفر للحال الأويرات ونادى بموسى خان سلطاناً على المغول وهو ابن حفيد هولاكو فنفره قومه وابلو بلاءً حسناً وهزموا أرياغاوون وأعوانه فولوا الأدبار إلا إنهم تأثروه وقبضوا عليه وقتلوه بعد أن ملك ستة أشهر.

فقام فى تلك الأثناء الشيخ حسن صاحب عساكر بلاد الروم أسية الصغري وقائدها وتحزب لرجل آخر من سلالة هولاكو وهو محمد خان فانجده على موسى خان وعلى بادشاه وغلبهما وكسرهما وخذلهما فى وقعة آلاطاغ فى ١٤ ذى الحجة سنة ٧٣٦هـ (ـ ٢٤ تموز ١٣٣٦) وقتل فى المعركة على بادشاه، أما

موسى فأنه ولى منهزماً إلى بغداد وكان الأويرات قد تملكوها.

وفى شهر ذى الحجة من سنة ٧٣٧هـ (تموز سنه ١٣٣٧) قتل موسى بأمر الشيخ حسن وكان موسى هذا قد أسر بعد أن فر هارباً من معركة دارت رحاها عليه فى جوار مراغة وكان قد حارب فيها دفاعاً عن طوغاى تيمور الذى اقامه خوارج خراسان رئيساً عليهم.

وأما محمد خان فأنه قتل فى السنة التالية فى عنفوان الشباب وغضاضة الأهاب بعد معركة نخجبوان التى دارت دائرتها عليه فى ٢٠ ذى الحجة سنة ٧٣٨هـ (١٠ تموز ١٣٣٨) وكان قاتله أحد خصوم الشيخ حسن الأيليخانى واسمه كاسمه فسمى حسن الجربانى تمييزاً له من سميه.

فلما اضمحل أثر الخصمين وقع أمر ازال مافى المعضلة من الأشكال وهو أن حسن الأيليخانى أخذ العراق وحسن الجوبانى اختص لنفسه اذربيجان ثم أختار الأول ملكاً وسلطاناً شاه جهان تيمور من صلب كيخاتو بن اباقا وذلك بعد أن رأى نفسه مكرهاً على أن يترك طوغاى تيمور لكثرة مادس حسن الجوبانى من الدسائس والحيل، وأما هذا فسمى نفسه سليمان خان بن محمد من سلالة هولاكو فطرت شرارة الحرب مرة أخرى ودارت رحاها على حسن الأيليخانى وفر هارباً فازعاً إلى بغداد وتحصن فيها وأعلن بسيادته عليها وعلى هذه الصورة انتهى ملك المغول فى دار السلام وحقر الإسلام وذلك فى سنة ٧٤٠هـ (ـ ١٣٣٩م ـ ١٣٤٠م) انتهى ملخصاً عن ابن العبرى وذو صون ونظمى زاده وكتاب منتجع المرتاد فى تاريخ بغداد وهو كتاب خط لمؤلفه جبرائيل حنوش أصفر.